آداب الرافدين – العدد (45)　　1428هـ –2007 م

رثاء الأبناء في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي

د. عمار حازم محمد علي (*)

ملخص

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين إلى يوم الدين أما بعد فلقد جاء الإسلام نوراً وهدى للناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور وليبين لهم سبل النجاة ويهديهم إلى سواء السبيل، وقد أثر الإسلام في كل جانب من جوانب الحياة في عصر ما قبل الإسلام وصوره وقد تناولت جانباً من هذه الجوانب ألا وهو تأثيره على الشعر بصورة عامة ولاسيما شعر رثاء الأبناء في فترتين صدر الإسلام والعصر الأموي لان الثاني هو امتداد للأول. فكان من أسباب اختياري لهذا البحث هو ما يثيره الرثاء بصورة عامة ورثاء الأبناء بصورة خاصة في النفس الإنسانية من لواعج الألم والفراق ويدفع الإنسان إلى التعاطف مع ذلك الأب الفاقد، وكذلك لاحتواء هذا الشعر على العاطفة الصادقة النابعة من صميم التجربة الشعرية التي يعتب عليها الأب الثاكل وكذلك بسبب المبادئ التي جاء بها الإسلام والتي تبين حقوق الأب على الابن وبالعكس ومحاولة إجراء نوع من المقارنة بين الرثاء في عصر ما قبل الإسلام وصوره في جوانبه المختلفة.

(*) مدرس في قسم اللغة العربية _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

أولاً: الرثاء في عصر ما قبل الإسلام وصدره

لم نكن لنبدأ الحديث عن الرثاء في شعر صدر الإسلام دون الرجوع إلى عصر ما قبل الإسلام حتى نقف على الجوانب المهمة التي أمدّت الشعراء وأثارت قرائحهم ومعرفة جوانب التباين ووجوه التطور بين هاتين الفترتين التي كان لها الأثر الكبير في العصور التي تلتها. فعصر ما قبل الإسلام يمثل الذروة في الشعر العربي مدحاً وغزلاً ورثاءً.. وإن لم نكن لنلمّ بجميع الجوانب بين هاتين الفقرتين فعلى الأقل نشير إلى بعضها على سبيل التمهيد للدخول في موضوعنا الأساس.

فقد عرف العرب الرثاء منذ عصر ما قبل الإسلام إذ كان الرجال والنساء جميعاً يندبون الموتى كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت وان ذلك مصير محتوم (1). نجد أن الأواصر التي تربط بين أبناء عصر ما قبل الإسلام هي الأواصر القبلية والفرق والدم فصلات القرابة كان لها الدور الكبير في إثارة العواطف والألم في نفوس أبناء القبيلة وصولا إلى نسيج صور تعبر عن مدى الحزن والأسى للفقيد فالعرب كانوا سباقين في مضمار الرثاء والفنون الشعرية الأخرى التي عبروا عنها بقصائد مزخرفة بالحزن والألم ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى وهذا لا نجده في شعر ما قبل الإسلام الذي وصل إلى مرحلة فنية راقية ولا نرتاب في أن الرثاء بدأ عن العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصور تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئن الميت في قبره ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشر، ثم اخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن

---

(1) الرثاء، شوقي ضيف: 7.

ومازال حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قبل الموتى ومحاولة ذكرهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم مع التفكير في القدر وقصور الناس أمامه، وعيشه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم (2). فالرثاء هو تعداد مناقب الميت وتبيان مآثره، وإظهار مشاعر الحزن واللوعة وإثارة العواطف الحزينة، وصدق العاطفة وعمقها في الرثاء تتوقف على مدى صلة الشاعر بالمرثي، فكلما كانت الصلة اقرب والعلاقة أوثق كانت العاطفة اصدق واعمق(3). ولقد فتح الإسلام آفاق جديدة في مجال الرثاء وطرح أفكار وبدائل للكثير من المعتقدات لعصر ما قبل الإسلام وبخاصة وضوح المصير لدى المسلم وكشف لغزه وتأثر الشعراء بهذا كله، وازدادوا امتناعا به كلما زاد إيمانهم فانعكس في شعرهم وكثر عندهم التعزّي بصورة تفوق بكثير ما جاء في الشعر الجاهلي، صحيح انهم تأثروا في تعزيتهم لأنفسهم بتقاليد الجاهليين وهذا أمر طبيعي طالما يتصل الأمر بالفن وسننه وتقاليده ولكنهم مع تأثرهم بسنن القدماء فانهم طوروا مضامين هذه التقاليد، وابتكروا ضروبا أخرى في العزاء (4). وكيف لا يتأثر الرثاء بالإسلام وقد بين للناس طريقهم في الدنيا والآخرة وما الدنيا إلا فترة يقضيها الإنسان ليربح ما يحصده في الآخرة من أعمال صالحة تدخله الجنة. فلذلك أوجد الإسلام للمؤمن عنوان فخار أضيف إلى غيره من العناوين، إذ وجد الشاعر في الرثاء عزاء مستمرا من عار محتوم إلا وهو خزي عذاب جهنم (5). ولا ريب أن الرثاء كان من ابرز أبواب الشعر العربي تأثرا بالدين الإسلامي لاستنباطه المعاني

---

(2) م . ن: 7.

(3) محمد مهدي البصير شاعراً، منعم حميد حسين: 124.

(4) رثاء الأبناء في الشعر العربي، مخيمر صالح: 124-125.

(5) الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سركيس: 94.

الدينية تبعا لطبيعة الموضوع وما يشيره الموت من تساؤلات فضلا عما يمكن أن يخص به الشهداء قتلى المعارك. وقد بكى الكثير من الشعراء القتلى والمفقودين والهالكين وناحوا عليهم ودعوا بالرضوان لهم وعددوا محامدهم مرددين أن الموت قدر محتوم (6). وقد جاءت قصائد الرثاء في الإسلام زاخرة بالمعاني الإسلامية والدينية وهذا أمر يتفق مع سنن التطور الفتي إذ يقول أبو صخر الهذلي(7):

فيغدوا الفتى والموت تحت ردائه ولا بُدَّ من قدر من الله واجب

ونجد المصادر والمعاني الإسلامية التي تتصل بمصير الإنسان، وسبيل الناس وحياتهم كقول أعرابية في رثاء ابنها عامر(8):

أقمت أبكيه على قبره من لي بعدك يا عامر

تركتني في الدار لي وحشة قد ذل من ليس له ناصر

وقالت كذلك فيه:

والصبر والتسليم لله والرضا إذا نزلت بي خطة لا اشاوها

إذا نحن أبنا سالمين بأنفسٍ كرام رجت أمراً فخاب رجاؤها

فأنفسنا خير الغنيمة انها تؤوب ويبقى ماؤها وحياؤها

---

(6) م . ن: 339.

(7) شرح أشعار الهذليين، السكري: 2/ 918.

(8) العقد الفريد، ابن عبد ربه: 3/ 259-260.

ولا بر إلا دون ما بر عامر ولكن نفسا لا يدوم بقاؤها

هو ابنى أمسى أجره (لي) وعزنى على نفسه رب إليه ولاؤها

فان احتسب أوجر وان أبكه أكن كباكية لم يحن ميتا بكاؤها

وقد أوجد بعض الشعراء الإسلاميين ضروباً جديدة لم تكن موجودة في عصر ما قبل الإسلام وكان المصدر الأساسي لهذه الضروب والمعتقدات الدينية الإيمان بالآخرة، ولعل موت الرسول صلى الله عليه وسلم كان مادة صالحة للتأسي بموت الأبناء أو الأخوان لان مصيبة المسلمين برسولهم من أفدح المصائب التي تهون وتصغر أمامها افدح المصائب.

ثانياً: الفرق بين الرثاء والمديح

وهناك حديث طويل بوجوده الفرق بين الرثاء والمديح فهناك من يرى بأنه لا فرق بين المديح و الرثاء يقول قدامة ابن جعفر "إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا ان يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل (كان)، (توفى)، و (قضى نحبه) وما أشبه ذلك وهذا لا يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو يمثل ما كان يمدح في حياته"(9). نستتشف من كلام قدامة أن الرثاء والمديح سواء لأن الرثاء هو مدح الميت وهذا أيضا ما يذهب إليه ابن رشيق حيث يقول (ليس بين الرثاء والمديح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت كان

---

(9) نقد الشعر، قدامة ابن جعفر: 111.

أو (عدمنا به كيت وكيت) وما يشاكل هذا ليعلم انه ميت)(10). ولا نريد ان نقف عند هذا الموضوع كثيرا ولكن نجيب على هذين القولين فنقول كيف لا يكون هناك فرق بين الرثاء والمديح، والمديح هو فن الحياة والرثاء هو فن الممات والمديح يبعثه الإعجاب والأمل والرثاء يبعثه اليأس والوفاء والمديح تلابسه بهجة وسرور والرثاء تتصل به الفاجعات والاكدار والمديح يثير في النفوس غبطة وسرورا والرثاء يشبه فيه الحسرة والاعتبار. فالفرق شاسع بين المديح والرثاء كما بينّا سابقاً لان المديح قد يشوبه النفاق والرياء لكن الرثاء يخلو من ذلك وقد يكون الرثاء كالمديح من حيث النفاق وذلك لإرضاء ذوي الميت أو مداهنتهم والعنصر الذي يجعل هذا الفرق واسعا هو عنصر العاطفة فالعاطفة في الرثاء أقوى واظهر منها في المديح.

ثالثاً: الموت والحياة في قصائد الرثاء

لا تخلو قصائد الرثاء من ذكر الموت وسطوته على الحياة الإنسانية وان لم يكن ذلك بصورة مباشرة فيكون بصور وإيحاءات وإشارات أو ألفاظ معبرة عن فكرة الموت كالمنايا والردى وما إلى ذلك من هذه الألفاظ. وقد كان إيمان الإنسان سواء في العصر الذي سبق ظهور الإسلام أو في صدر الإسلام بالموت إيمانا تاما لاشك فيه وإن مصير كل حي إلى زوال إلا إن ما بعد الموت كان مختلفا فيه ويعتبر الموت بالنسبة للإنسان مشكلة فبمقدار ما يفرح الإنسان بمولود حين يولد فبمقدار ذلك الفرح يحزن على فقده لان الموت هو قطع علاقة الإنسان من عالم الأحياء إلى عالم الموتى حيث مثوى الأجساد التي يطويها الثرى كما يطوي السجل الصحف

---

(10) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني: 147.

قال تعالى: "لكل أجل كتاب" (11) وكلما تعمق الإنسان في أبعاد الحياة واتجاهاتها دعاه ذلك إلى إعادة النظر في مفهوم الموت وما يترتب عليه من آلام وأحزان وصراعات تقترب أو تبتعد من دارة الزمن ذلك الزمن الذي يخط رسومه ويبني هياكله الإنسان وهو في الحقيقة لا دخل له في اساسات بنائه، كما أنه لا يملك رد تداعيه أو تساقطه وبمقدار ما يعني ويدرك من ذلك مواجهته لحقيقة الموت والتغيرات الدائمة في هذا الوجود(12). ولم يجل في خاطر الشاعر في عصر ما قبل الإسلام خاصة أو فكرة ليقدم تفسيراً لما يراه من هيمنة الموت وسطوته أو يفكر في القوة التي تقف وراء هذه الظاهرة ولكنه اسلم إلى حقيقة ما يراه واقعاً في حياته بالرغم من مرارة هذه الحقيقة وهي ان كل شيء زائل لا محالة قال تعالى: "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"(13) كما قال الحارث بن عباد(14):

كـُلُّ شيء مصيرهُ للزوال غيرَ ربي وصالِح الأعْمالِ

وترى الناس ينظرون جميعاً ليس فيهم لذاك بعض احيال

فيحاول الإنسان بحسب طبيعة البشرية أن يبحث عن تفسيرات مشكلات الموت ويتساءل دائما عن (الموت) وانه يوماً ما سيموت. والحركة الداخلية التي يحاول المرء أن يرد الأثر الذي يتركه في نفسه عند سماعه لكلمة (مشكلة الموت)

---

(11) سورة الرعد، الآية: 38.

(12) شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم، عبدالرشيد عبدالعزيز: 5.

(13) سورة الرحمن، الآية: 26-27.

(14) الموسوعة الشعرية، الإصدار 2، المجمع الثقافي، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، 1997-2001، (قرص ليزري).

أن يتساءل: هل للموت مشكلة؟ أو ليس الموت واقعة حقيقة لكل فرد ولابد أن يعانيها يوماً ما؟ أو لسنا نعرف جميعاً هذه الواقعة لاننا نستطيع أن نشاهدها لدى الآخرين(15). وبما أن الموت واقع فلماذا يخاف منه الإنسان ويحاول أن يشغل نفسه عنه ويكره سماعه والحديث الذي يطول فيه ويأنس بعكسه بالحياة ومباهجها ويأمل ويفكر في المستقبل دون أن يخطر بباله أنه سيموت ولربما قبل أن يحقق ما يصبو إليه يموت، والحياة دائما هي الإشراقة الجميلة والأمل الذي يراود الشعراء في قصائدهم والموت دائماً يتلون بألوان غامضة ممقتة للنفس الإنسانية.

ولذلك كان يلجأ الشاعر إلى أن يعزى نفسه لماذا لأنه يجد ذلك العزاء نوعا من إزاحة ثقل الموت على نفسه ومحاولة لتعويض النقص الذي حدث في حياته ليبدأ حياة جديدة يعيش فيها لا حزيناً كمداً على من فقد ولكن البكاء والحزن الجميل على من فقد "وهذا يدفعه في الغالب إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة والغوص فيها مما ينتهي إلى معانٍ فلسفية وروحية تحوّل العزاء عن بعض الشعراء إلى حكم تـُرْوى"(16) وبما ان الإنسان في عصر ما قبل الإسلام كان يتعامل مع الآلهة فإنه يلفت النظر غياب اثر الآلهة التي كان الجاهليون يعتقدون بها من أصنام وغيرها وبالرغم من اعتقادهم بأثرها في حياتهم إيجابا وسلبا، وحرصهم الشديد على نيل رضاها وطلب وُدِّها فلم يُبيِّنوا مثلاً في قصائدهم غضب الآلهة أو سخطها في شعرهم وانتقامها منهم بخطف أبنائهم أو إنسان عزيز عليه من بين أياديهم (17). وهكذا فإن إحساس الشعراء بعجزهم أمام الموت أدى إلى التسليم له والرضى بما

---

(15) الموت والعبقرية، عبدالرحمن بدوي: 3.

(16) شعر الرثاء العرب واستنهاض العزائم: 10.

(17) رثاء الأبناء في الشعر العربي: 102.

يلاقي ولكنه يكثر العتب والتمني والرجاء في قصائده كنوع من التخفيف من القلق والتأزم النفسي الذي يمس به المصاب بمصيبة الموت، ولعل الخوف الذي يتملكه إنسان عصر ما قبل الإسلام من الموت كان مدعاة لزيادة الحزن العميق والألم في النفس الشاعرة التي تفقد شيئاً إلى غير رجعة لأن الشاعر يتصور ضآلة نفسه أمام الموت مهما اتخذ من حيل بل أن الموت يكون رصيداً للحياة يتحين لها الفرص لينقضّ عليها في الوقت المناسب في لحظة زمنية لا تتجاوز الثواني أو الدقائق ليحول الحالة "متحركة والمتهيجة والمتألقة إلى حالة راكدة ساكنة يائسة تزفر الآهات وتكثر الدموع على من اصبح في شراك الموت ولا منفذ له لأنه من اقتنصته المنايا فلا منجٍ له ولا عون من أقربائه بل ينظرون إليه وهي تخطه من بينهم ولا يستطيعون منعها بل يطلبون الرحمة منها ولكن قد فات الأوان" وهناك مشاكل ثانوية تتصل بالموت وأول هذه المشاكل هي المشكلة النفسانية للموت وتدور حول البحث في الشعور الإنساني نحو الموت أولا بازاء موت الذات الخاصة وثانياً إزاء موت الآخرين لكن يلاحظ إنّ البحث في هذه المشكلة ليس بحثاً في الأحوال النفسية عند الميت بل هي بالأحرى بحث في الأحوال النفسية عند المحتضر (18). لذلك فقد كانت مأساة البشرية بالموت في عصورها الإنسانية السحيقة عميقة الغور بعيدة التأثير في مسارات الحياة نفسها. فالعناية بالقبور والاهتمام بيوم الرحيل أدّيا إلى سيطرة الكهان والتباطؤ في القفز بالحياة الدنيا إلى غاياتها الموجودة(19).

---

(18) الموت والعبقرية: 28.

(19) شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم: 5

فكان لمجيء الإسلام اثر كبير في تغيير فكرة الموت والحياة لدى الناس حيث أن الإسلام بيّن أن بعد الموت حياة وهذه الحياة اما حياة سعادة أبدية أو حياة شقاوة وعذاب أبدية وكلا النتيجتين اللتين يؤول إليهما أمر الإنسان هما من عمل يده، ولم تعُدْ هناك مشكلة للموت أمام الإنسان المسلم لأن الحياة لم تعد لديه ذا أهمية وإنها هي مرحلة موصلة للإنسان إلى الحياة الأبدية وبالرغم من هذا التباين فإن الدموع لم تنقطع من عيون الرثيين الإسلاميين وكذلك الحزن على من فقد ولده لأن هذه العواطف تكمن في القلب الإنساني والتي تتأجج إزاء كل موقف يتعرض له الإنسان.

رابعاً: ظاهرة رثاء الأبناء

تعددت أغراض الشعر في الأدب العربي ومنها الرثاء الذي يقول فيه حازم القرطاجني "وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيراً للتباريح، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ وان يستفتح فيه بالدلالة على المقصد ولا يصدر بنسيب لأنه مناقض لغرض الرثاء"(20) هذا بالنسبة للرثاء بصورة عامة فكيف إذا كان الرثاء للابن الذي هو فلذة كبد والده وسنده الذي يكنى به والذي ينال الرحمة بالدعاء منه "والذي لاشك فيه أن رثاء الأهل في الشعر العربي كثير ونابض بالحياة، ورثاء الأبناء اشد لوعة وألماً وحرقة"(21) لأن الإنسان يحس بأن ابنه جزء منه يرفع شأنه ويعني قدره فكيف بفقدانه وكم من الكلمات المنظومة تكفي لرثائه وهل تشفي غليل أب محترق الفؤاد "ومن اشد الرثاء صعوبة

---

(20) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ابن الحسن حازم القرطاجني: 351.

(21) شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم: 14.

على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة، لضيق الكلام فيه عليه فيهما، وقلة الصفات"[22] وذلك لأن المجال يضيق في ذكر محاسنه وأعماله وعلمه وشجاعته لأنه ما زال صغيراً أما إذا كان كبيرا فذلك حسن في الرثاء ويجيد الأب في رثاء ابنه لأنه يقول الرثاء وفؤاده يحترق حزنا على ولده، وقيل لأبي عبيدة: ما أجود الشعر؟ فقال: النمط الأوسط – يعني المراثي. قال: وسألت أعرابيا، ما أجود الشعر عندكم؟ قال: ما رثينا به آباءنا وأولادنا وذلك أنـّا نقولها وأكبادنا تحترق [23]. وإذا كانت أصوات النواح قد ارتفعت على مرّ العصور مع موت الاخوة فإن الأصوات ارتفعت مع موت الأبناء وقيل (خرج عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يوما إلى بقيع الغرقد[24]، فإذا أعرابي بين يديه، فقال: يا أعرابي، ما أدخلك دار الحق؟ قال: وديعة لي ها هنا منذ ثلاث سنين؛ قال ما وديعتك؟ قال: ابن لي حين ترعرع فقدته فأنا اندبه؛ قال عمر: اسمعني ما قلت فيه؛ فقال:

يا غائبا ما يؤوب من سفره ... عاجله موته على صغره
يا قرة العين كنت لي سكنا ... في طول ليل نعم وفي قصره
شربت كأسا أبوك شاربها ... لابد يوما له على كبره
أشربها والأنام كلهم ... من كان في بدوه وفي حضره
فالحمد لله لا شريك له ... الموت في حكمه وفي قدره
قد قسم الموت في الأنام فما ... يقدر خلق يزيد في عمره

---

[22] العمدة: 2/ 154.

[23] المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي 2/ 38.

[24] بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

قال عمر: صدقت يا أعرابي، غير ان الله خير لك منه) (25) وصدقت هذه الأعرابية التي تقول في رثاء ولدها(26):

يا قرحة القلب والأحشاء والكبد   يا ليت أمك لم تحبل ولم تلد

لما رأيتك قد أدرجت في كفن   مطيبا للمنايا آخر الأبد

أيقنت بعدك أني غير باقية   فكيف يبقى ذراع زال عن عضد

فهي تشعر شعورا عميقا بأن أجزاء منها وأراها التراب وهي في طريقها إليه لتضمه إلى جسدها وصدرها فحياتها قد انتهت بموته وهي تجتاز واديا مظلما من الغصص والآلام.

وما أصدق بكاء الأب في ولده(27):

هوى ابني من عُلا شرفٍ   يهول عُقابهُ صعدُه

هوى من رأس مرقبة   فزلت رجله ويده

فلا أمّ فتبكيه   ولا أخت فنفتقده

هوى عن صخرة صلدٍ   ففرَّتْ تحتها كبدُه

---

(25) العقد الفريد: 3/255.

(26) م . ن: 3/ 259.

(27) ديوان الحماسة، لأبي تمام، شرح التبريزي: 2/ 184.

فأبنه قد سقط سقطة لا إقالة له منها، سقط في هاوية الموت بأسفل الجبل ورآه أبوه وهو يسقط في قراره الأبدي ولا يستطيع الأب أن يمدَّ له أي عون ومع ذلك فإنه لا يزال يظن أنه من حوله فيضع يده ويتحسس كالأعمى فلا يجده وانما يجد لفقده الوجد والبكاء.

ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي(28):

والدهر لا يبقى على حدثاته   شبب أفزته الكلاب مروع

فأن ظاهرة التفجع والألم واضحة في قصائد رثاء الأبناء والأطفال أن يذكر مخايلهم وما كانت الفراسة تعطيه فيهم مع الحزن لمصابهم والتفجع لموتهم (29). والتفجع ملاحق لموت الأبناء وكذلك البكاء يقول احيحة بن الجلاح (130هـ) في رثاء ابنه(30):

ألا ان عيني بالبكاء تهلل   جزوع صبور كل ذلك تفعل

"ومع كثرة الرثاء في الشعر العربي للأبناء والاخوة قلَّ ما نجد فيه بكاء لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت، ويرجع ذلك إلى ان الشعراء تعودوا تقليدا للجاهليين – ألا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وألا يبكوا عليهن"(31) وذلك تقليد لعصر ما قبل الإسلام لأنهم كانوا يرون في الأبناء القوة والمنعة ويربّونهم ليشاركوهم في غزواتهم في حين كانت البنات ضعافا لذلك كانوا يئدونهن خشية لحاق العار الذي يصيبهم على

---

(28) ينظر: العمدة: 2/ 158.

(29) شرح ديوان الحماسة: 2/ 184.

(30) معجم البلدان، ياقوت الحموي: 1/ 391

(31) شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم: 14، وينظر الرثاء: 25، 91.

أثر سبيهن من قبل الأعداء. (ولعل النساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدهم جزعاً على هالك لما ركَّبَ الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة) (32) فالمرأة بطبعها وتركيبها ضعيفة النفس لا تتمالك نفسها عند وقوف الحدث وهي اشد عاطفة من الرجل. وطبيعي أن يتفوق النساء على الرجال في ندب الموتى والنواح عليهم لأن المرأة أدق حساً وأرق شعوراً وأيضا فان حياة الرجال في العصر الجاهلي قاسية تقوم على القتل والتفاخر بالشجاعة والبطولة فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء بل لقد ذهبوا يظهرون التجلد والصبر على من يموت منهم(33).

فنجد الولد أقرب ما يكون على الوالد لأن ابنه مضغة منه وفلذة كبده ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الحدث على الوالد تأثيرا كبيرا فيصبح حاله كغير الحال التي كان عليها قبل الحدث وتختفي الآمال وتسيطر الآلام، ولعل موت الولد يزيد من الدموع المنسكبة ولم يمنع الإسلام تلك الدموع ولم يحرمها وخير شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى على فقد ابنه إبراهيم. وبذلك فقد اصطبغ رثاء الأبناء بصبغة إسلامية لا تمنع البكاء ولا تحرمه بل تجعله مباحا لأن الفقيد عزيز على قلب الفاقد له. قبل أن أعرابية فقدت ولدها فأمسكت نفسها صبراً احتسابا فخرج الدم من ثديه وذلك لما ورد عليها من شدة الحزن والامتناع عن البكاء، وقال عامر بن واثله أبو الطفيل (100هـ) في رثاء ابنه(34):

---

(32) العمدة: 2/ 153.

(33) الرثاء: 8.

(34) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: 15/ 149.

ملك عزاءك ان رزء بليت به   فلن يرد بكاء المرء ما ذهبا

وليس يشفي حزينا من تذكره   إلا البكاء إذا ما ناح وانتحبا

فإنا سلكت سبيلاً كنت سالكها   ولا وحال ان يأتي الذي كتبا

فما لبطنك من ري ولا شبع   ولا ظللت بباقي العيش مرتغبا

ألف الشعراء حالهم هذا واعتادوا عليه وهدوه من علامات الوفاء لفلذات أكبادهم، وفي المقابل عدوا السلوان أو الكف عن البكاء تقصيراً في حق أبنائهم عليهم فكلما شعروا بتوان في عطاء عيونهم حثوها والحوا عليها لتظل سخية وجاء التماسهم هذا على صيغة واحدة وهي صيغة طلبية (أعينيَّ جودا، أو عيني جودي، أو ابكي)(35).

وقد ظهرت المعاني الإسلامية ووضحت وضوحاً ظاهراً في قصائدهم ولم يعد الموت للأبناء بعد مشكلة بالنسبة للآباء والأمهات بل على العكس فقد كان اكثر المؤمنين والمؤمنات يحفزون أبناءهم للجهاد قال تعالى: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (36) ومن ذلك قول الفرزدق يحاول إقناع زوجته(37):

فلست ولو شقت حيازيم نفسها   من الوجد بعد ابني نوار يلائم

على حزن بعد الذين تتابعا   لها والمنايا قاطعات التمائم

---

(35) م . ن: 15/ 84.

(36) سورة البقرة، الآية: 169.

(37) ديوان الفرزدق: 2/ 764.

وقد اختلف التعزي في الإسلام عما كان عليه قبله وبذلك عمّت أضواء الإسلام في النفوس وأخذت تظهر معه نزعة جديدة في التسليم لله والرضا بقضائه والصبر على امتحانه احتساباً وطلباً للأجر والمثوبة من عنده(38). وهذا يصدقه قول الله سبحانه وتعالى "(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (39) وهكذا ترى بأن الدافع العقيدي الجبار يدفع بالأم إلى أن تقود بنيها جميعاً بلسانها إلى الجهاد وتعدّهم له وكذلك الأبناء الذين عصوا آباءهم في سبيل الجهاد في سبيل الله وهذا كله بسبب القوة الدافعة التي يغذيها بالإيمان العميق بضرورة الانطلاق بالرسالة إلى كافة الناس ليخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. انطلقوا جميعا يجيبون داعي الله(40).

ولعل أروع ما يصور اتجاه فقد الأولاد والحزن عليهم والإيمان بالقدر ومصير الموت قول أبي ذؤيب الهذلي يرثي بنيه الخمسة الذين اشتركوا في فتوح مصر ماتوا في طاعون انتشر بها(41):

أمِنَ المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمتعب من يجزع

أودى بنيَّ وأعقبوني حسرة   بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

فبقيت بعدهم بعيش ناصب   وأخال أنِّي لاحق مستتبع

---

(38) الرثاء: 88.

(39) سورة البقرة، الآية 155-157.

(40) شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، النعمان القاضي: 42.

(41) العقد الفريد: 3/ 253.

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولعُ بالبكاء من يفجع

وليأتين عليك يوم مدّة يبكي عليك مُقنَّعاً لا تسمعُ

فهذا رثاء صابر مستلم للقضاء والشاعر فيه على يقين من عدم جدوى الجزع فالقضاء إذا حتم لا يدفع ولِمَ الجزع وهو صائر إلى المصير نفسه هذا في الحقيقة رد على كلام لزوجه التي كانت تحاول التخفيف عنه بقولها: امن المنون..... فهو يجيب كيف لا ابكي وقد فقدت أبنائي وبعد حديث يطول يعود إلى حديث التعزي بان الموت حتم....؟نعم انه يبكي فقد بنيه ويستشعر الحسرة عليهم كلما انفرد بنفسه في سكون الليل وويل للمحزون من الليل ولكنه حين يتعمق التجربة يجد ان البكاء في هذا الوقت سفاهة أيضا ولكن إذ له أن يحبس دموعه فسوف يظل المفجوع مولعا بالبكاء(42). وهكذا فالمعاني الإسلامية قد أخذت مأخذها في قصائد الرثاء وخصوصا رثاء الأبناء كما أخذت في الجوانب الأخرى لأن الأب المؤمن كان يأمل بأنه سيلقى ابنه المؤمن ويلتقي به في الجنة فلذلك كان ذلك نوع من الصبر والتجلد لفقد الأولاد.

من أهم وابرز القضايا التي برز فيها وتفرد الشعراء هو تمايزهم وتغايرهم من الحدث الذي ألم بهم وهو حدث موت أبنائهم ولقد اكثر الشعراء من الحديث عن حالهم أثناء وقوع الحدث وبعده ووصفوا أنفسهم وما آلوا إليه وصفا دقيقا جميع

---

(42) الأدب في عصر النبوة والراشدين، صلاح الدين الهادي: 318، ينظر: الرثاء: 19.

الزوايا ومختلف الجوانب. وكان الحزن هو القاسم المشترك والأول بين الشعراء وتشابهوا في الحديث عنه وتقاربت أفكارهم تقاربا واضحا "ولعل مرد ذلك إلى أن طبيعة النفس الإنسانية في مثل هذه الأحداث متقاربة إن لم تكن واحدة" (43) ويذكر أبو العباس المبرد فيقول حدثني العباس بن فرج الرياشي قال: قدم رجل من البادية، فلما صار بجبل سنام مات له بنون فدفنهم هناك، وقال(44):

دفنت الدافعين الضيم عني برابية مجاورة سناما

أقول إذا ذكرت العهد منهم بنفسي تلك أصداء وهاما

فلم أر مثلهم ماتوا جميعا ولم أر مثل هذا العام عاما

فنرى موقف هذا الشاعر من موت أبنائه موقف الإنسان الباكي الحزين الذي فجع بموتهم جميعا وكيف دفنهم وقدمهم للثرى لا عن طوع يد بل كرها وأمرا واقعا رضخ له وكيف أن هذا العام الذي مر به وهو لم يكن ككل الأعوام فعامه هذا مصاب بفقد أعز الناس إلى قلبه وفلذة كبده فسيبقى هذا العام عالقا في ذاكرته ويبقى جبل السنام في نفسه لا يبرح خياله وتفكيره لأنه مأوى ومثوى أبنائه.

ومن الشعراء من يصور المنايا فالفرزدق يقول(45):

وما ابناي إلا مثل من قد أصابه حبال المنايا برها واشتعابها

---

(43) رثاء الأبناء في الشعر العربي: 19.

(44) الكامل: 4/ 36.

(45) ديوان الفرزدق: 1/ 270 و 2/ 885.

يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب، فطلع الحسن رضي الله عنه يتخطى الناس فسقط، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فتناوله ثم رجع، فقال: والذي نفسي بيده ما علمت كيف نزلت؟ صدق الله عز وجل: إنما أموالكم وأولادكم فتنة، وضرب رجل وطولب بمال فلم يسمح به، فاخذ ابنه وضرب فجزع فقيل له في ذلك فقال: ضرب جلدي فصبرت، وضرب كبدي فلم اصبر يقول شاعر:

يقر بعيني وهو ينقصُ مدتي — مرور الليالي كي يشبُّ حكيم

مخافة أن يغتالني الموت قبله — فينشو مع الطبيان وهو يتيم

وقال آخر في ذلك المعنى:

لقد زاد الحياة إلى حباً — بناتي إنهن من الضعاف

مخافة أن يذقن اليتم بعدي — وأن يشربن رنقاً بعد صافٍ (46)

فهذا الشاعر يخاف على بناته أن يبقين بعده يتامى يذقن مرارة العيش لذلك اصبح يحب الحياة لا للحياة نفسها بل خوفا على بناته أن يعشن في ضيق من العيش بعد أن كن يعشن في بحبوحة منه. وكان للإسلام دور كبير في التغيير من موقف الشعراء بالنسبة للحدث الذي الَّم بهم لأن الإسلام كان دين الصبر والهداية والرحمة والعطف الأبوي إزاء هذا الموقف كأن يكون موقف الصبر والتجلد والاحتساب

---

(46) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور الثعالبي: 1/ 321.

وطلب الرضى والرحمة من الله على اَلمَّ بالشاعر من مصاب. وبذلك المعنى يقول الغطمش(47):

لقد كنت عن لحظ العيون رقيقة يؤثر فيك اللحظ والنظر الشـّزر

جميل وحقٌّ في حقك البكا وأجمل لي منه التجلد والصبر

فان صبرت نفسي فذلك شيمتي وان جزعت يوماً فأنت لها عذر

فنلاحظ الشاعر قد أباح بصيره وأعلنه وفضله على البكاء والجزع مع اعترافه أن فقيده خليق بالبكاء. فهذا الدافع الذي دفع بالشاعر إلى هذا القول هو الإيمان الذي يقيم وزناً للصبر والصابرين وطمعهم في مكافأة الله لهم على صبرهم، ولعل موقف أبي ذؤيب خير مثال على ذلك.

مما يدل على رسوخ الفكرة في نفوس الشعراء حيث فتحت آفاقا جديدة لهم، لم يتح لشاعر عصر ما قبل الإسلام الخوض فيها. فقد أصيب عمرو بن كعب النهدي بتستر مع مجزأة أباه الخبر، ثم علم فلم يجزع وقال: ((الحمد لله الذي جعل من صلبيّ شهيدا)) ثم قال:

فهل تعدو المقادر ال قوم هلاك المال أو فقد الرجال

فكلا قد لقيت وقلبتني صروف الدهر حالا بعد حال (48)

---

(47) الحماسة البصرية، البصري: 1/ 250-251، والغطمش هو عمر بن عطية من بني شقرة بن كعب بن ثعلبة بن سعده من شعراء الفتوح في خراسان.

(48) التعازي، أبو الحسن علي بن محمد المدائني: 17.

فهذا تصوير دقيق وجميل على موقف هذا الشاعر من فقد ابنه وهي مليئة بلواعج الألم والحزن والأسى على الفقيد فطبيعة الإنسان وفطرته تدفعه إلى ذلك فهذا الشاعر قد فقد ابنه وان هذا عنده شيء جليل وعظيم وقد ألمَّ قلبه فهذا، جرير يرثي ابنا يقال له سوّادة هلك بالشام مبدياً عليه الحسرة والتألم قائلاً(49):

قالوا نصيبك من اجرٍ فقلت لهم   من للعرين إذا فارقت اشبالي

لكن سوادةُ يجلو مقلتي لحم   باز بصرصر فوق المرقب العالي

فارقني حين كف الدهر من بصري   وحين صرت كعظم الرمّة البالي

إن الثوي بذي الزيتون فأحتسبي   قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي

وبذلك نرى بأن العاطفة الأبوية تطغى على كل عاطفة وان المعاني الإسلامية ترسخت في شعر رثاء الأبناء بصورة واضحة من خلال الاستسلام للقضاء والرضى بما قسَّم وقدَّر الله وموقفهم كان من الحدث الذي الَّم بهم هو موقف المقتدي بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان أسوتهم في كل شيء. ولعل احسن المواقف الإسلامية في فقد الأولاد يتمثل في موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من وفاة ابنه إبراهيم وبهذا عمل المسلمون من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر عن عمر بن عبدالعزيز لما مات أبنه عبدالملك خطب الناس فقال: الحمدُ لله الذي جعل الموت حتماً واجباً على عباده فسوّى فيه ضعيفهم وقويهم ورقيعهم

---

(49) شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل عبدالله الصاوي: 430-431.

ودنيهم فقال عز وجل "كل نفس ذائقة الموت" (50) فليعلم ذوو النهى منهم أنهم صائرون إلى قبورهم مفردون بأعمالهم (51). فهذا الموقف هو بحق موقف ذلك الإنسان المسلم المؤمن بأن القضاء حتمٌ على كل إنسان على وجه الأرض وإن كل إنسان مصيره الفناء فلماذا الجزع والخوف وهذا عبدالله بن الأهتم يرثي ابنا له(52):

دعوتك يا بني فلم تجبني   فردت دعوتي يأسا عليّ

بموتك ماتت اللذات منيّ   وكانت حيه ما دمت حيا

فيا أسفا عليك وطول شوقي   إليك لو أن ذلك رد شيّا

وبذلك فقد احتوت الأشعار الرثائية للأبناء بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وقد حملت هذه الأشعار من المعاني الإسلامية الكثير ولم يظهروا الكثير من التجلد والجزع على فقد الأولاد كما كانوا في جاهليتهم وذلك لأنهم علموا أنّ مصيرهم سيكون واحداً وهو الخلود في الجنة إن شاء الله تعالى.

---

(50) سورة آل عمران، الآية: 185.

(51) الكامل: 4/ 19.

(52) العقد الفريد: 3/ 255.

Abstract

"The Elegies of sons in The Beginning of Islam , and Al,amauy Period"

Amar Hazim Mohammed(*)

The Islamic religion affected much all the ways of life , the levels of society as well as the man in general. Beside its affection on the ways of life in the pre-Islamic period. Therefore hn this research I concentrated on the influence of Islam on the Arabic poetry in general, and the elegies of sons in particular. The study tackled that type of poetry in both periods, the Beginning of Islam', and "Al,amany" Reviod. Becanse the second was the continuation of the first one. And the cause behind such a topic is to reveal what elegies, and especially the elegies of sons could provoke inside human-being. Through those elegies the sons managed to express their own inner-conflect, their suffering, pain, and sumpathy with those fathers whon lost

---

(*) Dept . of Arabic - College of Arts / University of Mosul.

their sons. Inaddition that type of poetry contains a stream of a true sympathy of those sons toward the lossing fathers who were suffering from absence of their own sons. Not to forget the principles that Islam emphasized on about the rights of fathers, and their treat ment to their sons. Finally there is a reference to a comparative study of the different images within the pre-Islamic period.